صيام شهر رمضان

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

إنَّ شـهرَ رَمَضـانَ شـهْرُ اللهِ بحَقِيقَةِ الْمَعنَى، فَكَمَا أنَّ الكَعْبَةَ بَيتُ اللهِ، والقُرآنَ كِتَابُ اللهِ، كَذَلِكَ هذا الشَّهْرُ الْمُبَارَكُ، هُوَ أيضًا شَهْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والشَّيءُ إذا انْتَسَبَ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ اكْتَسَبَ العَظَمَةَ، لأنَّ الشَّهرَ عَظيمٌ أَزَلِيٌّ وَأَبَدِيٌّ.

وإذا مـا دَقَّقْنَـا في قولِـهِ تعـالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصـِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، يجـبُ أنْ نُدَقِّقَ في أنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ لا يَذْكُرُ كَلِمَةَ (كُتِبَ) إلاَّ في مَوَاضـِعَ مُهِمَّةٍ، فَفِي هذهِ الآيةِ يَقُولُ: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصـِّيَامُ)، وَلَو كانَ الصـِّيَامُ أَمْرًا هَامِشـِيًّا في حياةِ الْمُؤمِنِ لَمَا قالَ القرآنُ الكريمُ: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)، فالإسلامُ لَو لَمْ يَكُنْ فيهِ صِيَامٌ كانَ نَاقِصًا وَلَمَا أَعْطَى ثِمَارَهُ.

وبمُلاحَظَـةِ قولِـهِ: (كَمَـا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ)، نجدُ أنَّ هذا الصـِّيَامَ لَمْ يُكتَبْ عَلَينا فَحَسْـب! وإنَّمَا على الأمَمِ السَّـابقَةِ جَميعًا، وبذلكَ لَم يَتَمَيَّزِ الْمُسـلِمُونَ بالصـِّيَامِ، لأنَّ الأُمَمَ السَّـالِفَةَ جَمِيعَها أُمِرَتْ بالصِّيَامِ.

ولأنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ بمَثـَـابَةِ بُسْتَانٍ فيهِ أشجَارٌ، وَثـَـمَرَتُهُ التَّقْوَى، فقد قال: (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، فَالتَّقْوَى حَالٌ إذا وُجِدَتْ في الإنسانِ الْمُؤمِنِ اسْتَمَرَّ على حَالِهِ مِنَ التَّعَالِي والتَّقْدِيسِ والطَّهَارَةِ، بدليلِ قولِهِ تعالى: (إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ).

بالنَّظَرِ إلى التَّعبيرِ القُرْآنيِّ الجَميلِ! قالَ تعالى: (لَعَلَّكُمْ)، ما يَعني أنَّ القَضـِيَّةَ لَيْسَـتْ قَضـِيَّةً تلقائِيَّةً، وأنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ لَيْسَ شَهْرَ الثَّوَابِ بوَجهٍ تلقَائِيٍّ، إذْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ يَحُوزُ على ثَـمَرَةِ التَّقْوَى، إنَّمَا يَحتَاجُ إلى أمورٍ أُخرَى غيرِ الوَجهِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيهِ. وبذلكَ لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَكُفُّ عَنِ الطَّعَامِ والشَّرَابِ في شَهْرِ رَمَضَانَ يَخْرُجُ بِثَـمَرَةِ التَّقْوَى.

لابدَّ أنْ تَكُونَ الثـَـمَرَةُ مُتَنَاسِبَةً مَعَ الشَّجَرَةِ، فَالْكَفُّ عن الطَّعَامِ والشَّرَابِ أَمْرٌ بَدَنِيٌّ مَادِّيٌّ، وَلَكِنَّ التَّقْوَى أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ، فَهَل يُعْقَلُ أنْ يَأتِيَ اللُّبُّ مِنَ القِشْرِ؟

إنَّ التَّقْوَى ثـــــمَرَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، وَعَلَيهِ لابُدَّ أنْ يَكُونَ الصـَّومُ صـَومًا مَعْنَوِيًّا، فالكَفُّ عن الطَّعَامِ والشَّرَابِ لَيسَ حَرَكَةً مُتَكَامِلَةً، إذْ لابُدَّ مِن إضَافَةِ عَنَاصِرَ أُخرَى، أَلاَ وَهِيَ الكَفُّ عَنْ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

فالَّذِي يَصـُومُ بفَمِهِ وَمَعِدَتِهِ، وَلا يَصـُومُ بعَينِهِ، هَلْ كَفَّ نَفْسـَهُ عَنِ الحَرَامِ؟ والَّذِي يَكُفُّ عن الطَّعَامِ والشَّـرَابِ، ولا يَكُفُّ عن غِيبَةِ الْمُؤمنينَ التي يَقُولُ فيها الإمامُ جعفر الصَّادق (علينا سلامُهُ): (مَنْ رَوَى عن مُؤمِنٍ رِوَايَةً يُرِيدُ بهَا شَيْنَهُ وَهَدْمَ رُتْبَتِهِ لِيَسْقُطَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، أَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ وَلايَتِهِ إلى وَلايَةِ الشَّيطَانِ وَلا يَقْبَلُهُ الشَّيطَانُ)، هل هذا الإنسانُ صَائِمٌ؟

علينا إذًا أنْ نَعْلَمَ أنَّ هناكَ فَرْقًا وَاضِحًا عندَ أَهْلِ الحَقِّ بينَ صَوْمِ الكَفِّ عَنِ الطَّعَامِ والشَّرَابِ، وَصَوْمِ الكَفِّ عن الْمَحَارِمِ كُلِّهَا كَمِثَـالِ قولِهِ تعالى: (ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ)، و(فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ)؛ إذْ لَمْ يَتَكَلَّمْ هُنَا عَن صَوْمِ الجَسَدِ بلْ عَن صَوْمِ النَّفسِ واللِّسَانِ كَمِثَـالِ قولِ سيِّدنا عيسى الْمَسيحِ (ع): (الإِنسَانُ يُمكِنُهُ أَن يَتَطَهَّرَ بِحَفنَةٍ مِنَ الْمَاءِ، وَلاَ يُمكِنُهُ أَن يُطَهِّرَ قَلبَهُ بِكُلِّ مِيَاهِ البَحرِ الكَبِيرِ).

فـالصـــَّومُ عن الطَّعَـامِ والشـــَّرَابِ لا يُفِيدُ أَبَدًا إذا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ رَادِعٌ نَفْســـِيٌّ عن ارْتِكَابِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَصـَوْمِ الأَعْرَاضِ عَنِ الشِّرْكِ باللهِ تَعَالى كَمَا ذُكِرَ فِي كِتَابِ اللهِ: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)، فَلْنَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْمَعَانِي ولْنَعْتَبِرْ.

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني الدكتور أحمد أديب أحمد